الفصل الأول:

أوبرا الصباح

"نهض المخيم على صرخة أمي، كأنها جرس إنذار لا يرحم ".

أحيانًا تندلع حرب صغيرة إلى جوارك، حرب لا تُبثّ في نشرات الأخبار، ولا تثير اهتمام الصحف العالمية، لكنها تبدأ ببساطة عند باب بيتك أو في زقاق المخيم الضيق.

العالم في الخارج ينقلب رأسًا على عقب، الجيران يصرخون، الأطفال يركضون، والنسوة يلوحن بأذرعهن كأنهن في مظاهرة مصغرة، بينما أنا... ممدد على فراشي الرثّ، أتشبث ببقايا دفئه كأنه آخر معاقل النجاة.

أقلّب جسدي بكسل، وأشعر أن التاريخ بكل ثقله يطرق باب غرفتي، فأدير له ظهري ببرود، كأنني أتعامل مع ضيف ثقيل جاء بلا موعد.

باختصار... في بيتنا ما في احتمالات ولا فلسفة: يا بتنطّ، يا بتاكل علقة!

النوم في قلب الفوضى قد يفسَّر بألف طريقة: بلادة مطلقة، لا مبالاة تستفز الحجر، أو حتى هروب تكتيكي يشبه انسحاب جيش مهزوم. لكن بالنسبة لي فالموضوع أبسط بكثير: أنا لا أنام... أنا أعبد النوم! لا أفرّط فيه، خصوصًا في الساعات الأولى من الصبح، حين يمتلئ المخيم بالصخب، وصوت الباعة المتجولين، وصراخ الأطفال، ونباح الكلاب، وطرق الأبواب... بينما أنا أصرّ أن أعيش في صمتي الخاص، كأنني راهب في دير منعزل، أو كأن السرير عندي وطن مستقل له سيادته الخاصة.

لكن هذه المرة لم يكن نومي عاديًا، بل بدا وكأن العالم كله اتفق على مؤامرة لإيقاظي دفعة واحدة.

ضجيج يعلو من كل الجهات: صراخ متقطع، شتائم متطايرة كالشظايا،

طرقات على الأبواب والجدران كأن المخيم تحوّل إلى طبول حرب.

هذا هو معجم المخيم حين يثور: لا يحتاج إلى ورق ولا حبر، بل يُكتب مباشرة في الهواء، على الجدران، وفي ذاكرة الأطفال الذين يتعلمون أول درس مجاني في الشتائم قبل دروس الحساب.

»يا إلهي...« تمتمت داخل رأسي، وأنا أضغط جفنيّ بقوة كأنني أحاول أن ألصقهما بالصمغ الصناعي، أو حتى بخليط طين المخيم الذي لا يفكّه إلا المطر.

كان واضحًا أن خلف الباب تقوم حرب أهلية مصغّرة، أصوات تتقافز في أذني كالرصاص المطاطي: صرخة عالية تتبعها شتيمة غليظة، ثم ضحكة هستيرية من أحدهم، ثم طرقٌ مدوٍّ كأنه مطرقة قاضٍ يعلن الحكم النهائي.

كل موجة صوتية كانت ترتد داخل جمجمتي كأنها مباراة كرة طائرة، وأنا الوحيد الذي تحوّل رأسي إلى الشبكة!

في لحظةٍ شعرتُ أن ضميري يحاول أن يوقظني: «انهض يا رجل، صارت معركة برّه«!

مددت رجليّ خارج الفراش نصف شبر فقط، ثم تراجعت كأن تيارًا كهربائيًا لسعني: لا... مستحيل!

هذا ليس نداء وطن ولا صرخة مظلوم، هذا مجرد برنامجنا اليومي العائلي: «صرخات عند الفطور!«

أعرف السيناريو عن ظهر قلب، نسخة مكررة من أمس وقبل أمس، فلماذا أضحّي بدفء فراشي الذي صار أغلى من الوطن كله؟

قلت لنفسي ببرود، وأنا أدفن رأسي في الوسادة:

«خليهم يقتلوا بعض... بس يتركوا حصتي من الفطور«!

لكن المدهش أن أذني التقطت شيئًا لم تعتده في «أوبرا العائلة» المعتادة: كان شقيقي سائد، صاحب التأتأة المزمنة ولسانه المكسور، يطلق شتائم ثقيلة الوزن وكأنه خريج جامعة «أبو الزعرور للسباب»! ولم يتوقف الأمر عنده: الكارثة أن أمي نفسها، «أم الحضن الدافئ»، صارت تشارك في الحفلة! أمي التي تطبخ العدس بحنان، وتستطيع في اللحظة ذاتها أن تشوي سمعة خصمها على نار هادئة. كأنها تحمل في جيبها قاموسين: واحد للرحمة، وآخر للخراب.

عائلتي تملك طقسًا مقدّسًا لا تجده في أي كتاب أديان ولا في أي تقويم رسمي: يومنا يبدأ بالشجار بدلًا من تغريد العصافير. بينما غيرنا يفتح عينيه على صوت ديك أو موسيقى راديو قديم، نحن نستيقظ على أصوات صراخ وسباب تتطاير من غرفة لغرفة. يشارك فيه الجميع بلا استثناء: أمي، أبكار، تساهيل، وحتى الجدة إذا صادف أن استيقظت. كل فرد له دور، كأنها فرقة موسيقية متمرسة، لكن آلاتها الوحيدة هي الحناجر. أما الجيران المساكين، فما لهم إلا أن يتنهدوا من خلف الجدران: «يا الله... مش كل يوم!» لكن الحقيقة أنهم لو استيقظوا يومًا ولم يسمعوا الضجيج، ربما خافوا أن مكروهًا أصابنا.

تمسكت بوسادتي كغريق يتمسك بخشبة: «يمكن أظل نايم، عادي... يمكن المعركة تنتهي لحالها!» لكن الأقدار كانت أسرع مني. فجأة، طرقات هزّت باب الغرفة كأن مدفعية الجيش قررت التدريب عند عتبة بيتنا. ارتج الجدار، وارتجفت الوسادة بين يدي، وما عاد هناك مهرب لمسرحية النوم. شعرت للحظة أن كل شيء من حولي يتهدم، حتى الجدار صار يئن وكأنه سيقع عليّ قبل أن يفتح الباب.

كنت أتخيل أن جدار غرفتي سينهار قبل أن يُفتح الباب، كأنها بروفة

مصغرة لحرب ستالينغراد.

انفتح الباب باندفاعة عاصفة، وإذا بالصوت الذي أبغضه أكثر من أي منبّه أو مكبّر صوت في المخيم: أبكار.

صرخت وهي تنفث غضبها كأنها قائد كتيبة:

ـ «هو إنت نايم؟ قوم، قامت قيامتك! أخوك بتطاوش برّه، وإنت متخبي هون زي النسوان؟«!

يا لها من جملة! وحدها كفيلة أن توقظ ميتًا وتبعثه من قبره، فكيف بي أنا المسكين الذي لا يملك إلا سروالًا وفانيلة باهتة؟

لم يكن هناك داعٍ لأن أفتح عيني؛ فالصوت وحده كافٍ لفضح الهوية. إنها أبكار، شقيقتي الكبرى، خصمي الأبدي، والمدفعية الثقيلة للعائلة. كلماتها لا تُقال، بل تُطلق كالذخيرة، تخترق الجدران وتستقر في رأسي مباشرة. أما أنا، فكنت أملك درعًا واحدًا: فنّ التجاهل، مهارة صقلتها عبر السنين كأنها فلسفة حياة.

تمتمت بصوت خافت، محاولًا التشبث بآخر خيوط برودي:

ـ «إيش في؟«!